مولانا الشيخ محمد عادل الربّاني

موقفنا من الإسلاموفوبيا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. الصلاة والسلام على رسولنا محمد سيد الأولين والآخرين. مدد يا رسول الله، مدد يا ساداتي أصحاب رسول الله، مدد يا مشايخنا، دستور مولانا الشيخ عبد الله الفائز الداغستاني، شيخ محمد ناظم الحقاني، مدد. طريقتنا الصحبة والخير في الجمعية.

الله ﷻ يجعل مجلسنا هذا مجلساً مباركاً، إن شاء الله. الحمد لله، نحن هنا منذ ثلاثة أو أربعة أيام؛ ونحمد الله ﷻ الذي يسّر لنا التواجد هنا وسط نِعَمه وفي صحبة هؤلاء الأخيار. إن غايتنا وهدفنا هي الاجتماع بالصالحين. فلا قوة في الانفراد، وإنما القوة في الوحدة. هذا أمر الله ﷻ "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا". يأمرنا الله عز وجل بأن نعتصم جميعاً بحبل الله ﷻ وألا نتفرق. إن طريق الله عز وجل واحد، وهو نهج التوحيد وعدم الشرك به سبحانه؛ ويأمرنا الله ﷻ بالاجتماع على هذا الطريق.

.

وهذا الطريق هو طريق الأنبياء؛ فقد سافر كثير من الأنبياء لدعوة الناس إلى الدين الحق. لقد عملوا جميعاً من أجل خير البشرية، وسعوا لكي يمتثل الناس لأوامر الله ﷻ ويصبحوا عباداً صالحين. كانت مهمتهم شاقة جداً ولم تكن سهلة. إذ كان من الصعب إيصال الخير للناس لأن عقولهم لم تكن متجهة نحو هذا الطريق الجميل، بل كانت تسير في الاتجاه المعاكس تماماً. وقد سار نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم على هذا الطريق وقام بالدعوة والترحال. لم يبتعد نبينا الكريم ﷺ كثيراً عن الحجاز لغرض التبليغ؛ فقد ذهب فقط إلى الطائف، حيث قوبل بالرفض والأذى، واضطر للعودة جراء ذلك. ولم يهتدِ هناك سوى شخص واحد، كان رجلاً متواضعاً ومعدماً. وفي كل تحركاته وأفعاله ﷺ، كان الأمر يجري وفق حكمة الله عز وجل. وثمة حكمة بالغة في عدم خروجه ﷺ من المنطقة للدعوة؛ إذ لم يقم إلا برحلة واحدة -إلى الشام- ولم يسافر إلى أي مكان آخر. وهذا أمر ذو دلالة هامة، ففي عصرنا هذا، كثيراً ما يوجه الساعون للنيل من الإسلام اتهامات باطلة لشخص النبي ﷺ، غير أن حقيقة عدم سفره إلى أماكن أخرى تدحض أكاذيبهم. لقد كان عدم مغادرة النبي ﷺ للحجاز أمراً تقتضيه حكمة عظيمة، إذ أن جميع وحي الله ﷻ قد نزل عليه ﷺ هناك. وهناك بدأت رسالته في تبليغ الدعوة. وفي وقت لاحق، أُرسلت رسائل تدعو إلى الإسلام إلى الملوك والأباطرة المحيطين، وإلى المقوقس في مصر وملك الروم؛ حيث وُجّهت رسائل بأسمائهم لتعريفهم بالإسلام، حاملةً مضموناً واحداً "أسلم تسلم". وتلك كانت الطريقة التي بلّغ بها النبي ﷺ الرسالة. وبعد النبي ﷺ، سافر الصحابة إلى أصقاع الأرض؛ فوصلت الدعوة الإسلامية إلى كل مكان -حتى الصين- لنشر الإيمان وتعريف الناس بهذا الطريق الجميل. ونحن أيضاً كنا في سمرقند قبل نحو عشرة أيام. استُشهد قثم بن العباس -ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم- في سمرقند، وهناك يقع الضريح الشريف لذلك الصحابي الجليل.

.

هكذا نشروا الإسلام في أرجاء المعمورة بعد النبي ﷺ؛ فلم يُكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام. عندما كانوا يفتحون البلاد، كانوا يتركون الناس أحراراً ولا يجبرون أحداً على شيء، قائلين "إن شئتم اعتناق الإسلام فلكم ذلك، وهذا حقكم؛ فإذا أسلمتم تتمتعون بكامل الحقوق ولا يستطيع أحد حرمانكم منها. أما إذا اخترتم عدم الدخول في الإسلام، فيتوجب عليكم دفع الجزية". ومع ذلك، فبمجرد دفع هذه الضريبة، كان الفرد يتمتع بحقوق تفوق حتى حقوق المسلم. وعلاوة على ذلك، لم تكن الجزية المحصَّلة بتلك المعدلات المعهودة اليوم، أي ستين أو ثمانين أو تسعين بالمائة— بل لم تكن عبئاً يفوق الطاقة، إذ كانت تبلغ حوالي اثنين ونصف بالمائة - أي ما يعادل تقريباً نسبة الزكاة.

.

لقد كان هذا العدل تحديداً هو ما سهّل انتشار الإسلام. عندما شهد الناس هذه الإنسانية وهذا العدل، اعتنقوا الإسلام طواعيةً. يدّعي البعض أن "الإسلام انتشر بحد السيف"، وهي مزاعم عارية تماماً عن الصحة. فكما هو الحال اليوم، أطاح الإسلام بالحكام الظلمة لتحرير الناس، وحرّر شعوباً كانت تعيش في ظروف أسوأ من العبودية. يقول الناس "الإسلام سيئ". وهنا، يشعر الناس بالخوف عند سماع كلمة "إسلام"؛ إذ تسود حالة من "الإسلاموفوبيا" —أي الخوف من الإسلام— بين غير المسلمين. ومع ذلك، كانت البلاد الإسلامية موطناً لشعوب من شتى الخلفيات؛ فقد عاش اليهود والأرثوذكس والكاثوليك والبوذيون والزرادشتيون والهندوس بحرية في الدول الإسلامية، وكانوا جميعاً يعيشون معاً في سلام بمجرد دفع الجزية. والواقع أن ما ينبغي الحديث عنه هو "المسيحية فوبيا" —أي الخوف من المسيحيين. فهم يدّعون اتباع نهج عيسى عليه السلام، ولكن ماذا قال عيسى؟ قال "إذا لطمك أحدهم على خدك الأيمن، فأدر له الخد الأيسر". ومع ذلك، عندما دخل الصليبيون القدس، وبدلاً من نشر المسيحية في المدينة، كم من الناس ذبحوا؟ لقد دوّنوا ذلك في كتبهم

مولانا الشيخ محمد عادل الربّاني

الخاصة: لقد قتلوا سبعين ألف نسمة، ولم يستثنوا مسلماً ولا يهودياً ولا مسيحياً. لقد ارتفعت الدماء في الشوارع حتى بلغت الركب، ولم يُبقوا على حياة أحد. وفي طريقهم، وصلوا إلى إسطنبول -أو القسطنطينية كما كانت تُعرف آنذاك- ورغم أن إخوانهم في الدين المسيحي رحبوا بهم، إلا أنهم نهبوا القسطنطينية أيضاً. وعندما توغلوا في الأناضول، فتح الأرمن - الذين وثقوا بهم لمشاركتهم إياهم العقيدة المسيحية- أبواب حصونهم، لكن الصليبيين ذبحوهم هم أيضاً. وهذا الجيش الذي أطلقوا عليه اسم "الجيش الصليبي المقدس" كان يقوده قساوسة ورهبان؛ فقد جاؤوا -ادّعوا- ليقاتلوا باسم يسوع عليه السلام، مع أن القتال محرم عليهم أصلاً. لقد أعلنوا "نحن نقاتل من أجله، وسننشر المسيحية- دين النعمة، الخير، الجمال والرحمة". فأي جيش إسلامي ارتكب ولو قدراً يسيراً من هذه الوحشية؟ بل إن الجيش الإسلامي، حين يخرج في حملة، يلتزم بما ورد في القرآن "لا تؤذوا كبار السن، ولا النساء، ولا الأطفال، ولا العجزة. قاتلوا فقط من يقاتلونكم". بل ويأمر "لا تؤذوا من يطلب الأمان أو يستسلم أثناء الحرب". لقد حجبوا الحقيقة وزرعوا كذبة في أذهان الناس – مدّعين أن الإسلام همجي ومتعطش للدماء؛ في حين أن المتعطشين الحقيقيين للدماء هم أولئك الذين يتصرفون باسم المسيحية. ولماذا يُسمَّون مسيحيين؟ لأنهم يتقدمون رافعين صلباناً ضخمة، ومعلنين "حرباً مقدسة"، ويرفضون معاملة البشر كبشر. لا أثر للرحمة لديهم، بل ظلماً مفرطاً. وهذا هو الجانب الظاهر فحسب؛ فالنظام الذي أقاموه باسم المسيحية قائم برمته على الظلم والقهر. الفظائع التي ارتكبت في الأندلس، وأعمال القسوة التي مارستها البرتغال وهولندا وبلجيكا بحق الناس، والأرواح التي أزهقوها والتي لا تُحصى - إن القائمة لا تنتهي. في تلك الحقبة، كانوا يذبحون بلا رحمة كل من لم يكن مسيحياً. لقد ادّعوا أنهم ينشرون الحضارة في العالم عن طريق الحروب! ومع ذلك، لولا مسلمو الأندلس لما نالوا الحضارة قط. حسناً، يمكننا تفهّم اعتباركم لنا أعداءً، ولكن ماذا أردتم من أولئك الأفارقة المساكين؟ وماذا فعلوا لكم؟ لقد حشرتموهم في السفن كالبهائم وبعتموهم كعبيد في الأمريكتين؛ فمقابل كل مئة شخص أُخِذوا، بالكاد نجا عشرة منهم. لقد هلك مئة مليون إنسان خلال تلك العملية. ولم يكتفوا بذلك؛ بل راحوا يذبحون الناس أينما حلّوا - وهذه المرة في الأمريكتين. لقد نقلوا مبادئهم "المسيحية المقدسة" إلى الأمريكتين وأبادوا السكان الأصليين هناك، مرتكبين مجازر راح ضحيتها الملايين. وحتى ذلك لم يكن كافياً؛ فقد استهدفوا السكان الأصليين في أمريكا الشمالية أيضاً. قتلوا الملايين منهم، مبيدين إياهم عبر تعمدهم نقل الأمراض إليهم.

.

إن سماع هذا الأمر يثير في نفسي غضباً شديداً؛ فهم لا ينفكون يكررون الحديث عن "الإسلاموفوبيا" - "إسلاموفوبيا، إسلاموفوبيا، إسلاموفوبيا" - في حين أن ما يستحق النقاش حقاً هو "المسيحية فوبيا". لقد جئت إلى ألمانيا لأول مرة عام 1985، وكنت أقيم في منزل الراحل "جلال". كان هناك كتاب ألّفه أحد الأساتذة، وتضمن كلاماً فظيعاً وشنيعاً بحق نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم. وكان الشخص الذي يروج لهذه الافتراءات ممن يُفترض أنهم تلقوا تعليمهم في أوروبا؛ أي أنه كان يُحسب على المثقفين ويدّعي المعرفة الواسعة. لقد صُدمتُ حين رأيت ذلك. لقد أثار سماع مثل هذا الكلام عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم لأول مرة في نفسي مشاعر الدهشة والغضب العارم. كيف يمكن لأشخاص يدّعون "الذكاء" أن يتفوهوا بمثل هذا الكلام؟ ثم أدركنا الحقيقة: هؤلاء ليسوا ممن يتبعون عيسى عليه السلام، بل هم أتباع للشيطان. لقد خدعهم الشيطان؛ فجعلهم يرون الحسن قبيحاً والقبيح حسناً. إن كل ما يفعلونه مبني على الأكاذيب والأباطيل والمكر والخداع؛ فهم قادرون على ممارسة شتى أشكال عدم الأمانة. ولا توجد أدنى صلة بين ما جاء به عيسى عليه السلام وبين ما يفعله هؤلاء الناس.

.

لقد كانت أفعال عيسى عليه السلام مطابقة لأفعال سائر الأنبياء؛ فكما تنص الآية الكريمة "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ"، فقد أُمرنا بألا نفرق بين أي من الأنبياء. يجب ألا نميز بين الأنبياء؛ فصفات نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم والأوامر التي بلّغها هي ذاتها صفات الأنبياء الآخرين وأوامرهم. إن النزعة الإنسانية، الشيوعية، الاشتراكية، الإمبريالية- كلها أمور اختُلقت لصرف انتباه الناس وإشغالهم. أما الأمر الجوهري حقاً فهو طريق نبينا الكريم ﷺ؛ ففي هذا الطريق لا يتعرض أحد للظلم، إذ إنه طريق قائم على العدل. وحيثما وُجد العدل، نال كل ذي حقٍ حقَّه وساد الرضا بين الجميع. وهذا هو طريق الأنبياء ومن سار على خطاهم: منح الناس حقوقهم وصونها. ومع ذلك، فإن حرية المرء تنتهي عند النقطة التي تبدأ عندها حقوق الآخرين. لا يجوز لأحد التعدي على حقوق الآخرين؛ فهذا أمر مرفوض في الإسلام. فالناس جميعاً متساوون عند الله ﷻ، ولا فرق بينهم بناءً على اللون -سواء كان أسود، أبيض أو أحمر. إذاً، من هم الأشخاص الأفضل والمقربون إلى الله ﷻ؟ إن الأفضلية لا تكمن في الثروة أو الممتلكات، بل في اتباع طريق الله ﷻ وطاعته ﷻ.

.

مولانا الشيخ محمد عادل الربانى

لذلك، يجب أن يكون هدف المرء نيل مكانةٍ رفيعةٍ عند الله عز وجل. وكما ذكرنا، يتحقق ذلك باتباع الأنبياء - الذين يتبوؤون أعلى المراتب - والسير على طريقهم. ومن الضروري محبتهم، ومحبة الأنبياء تعني اتباع طريقهم. إذ إن الحب هو أهم ما في الحياة. وكما ورد في الآية الكريمة "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ"؛ أي "قل: إن كنتم تحبون الله ﷻ، فاتبعوني وافعلوا ما أفعل، لتصبحوا محبوبين عند الله عز وجل". وكما أشرنا في بداية الصحبة، فإن مصاحبة الصالحين أمرٌ بالغ الأهمية؛ فهناك الكثير ممن يسعون لإضلال الآخرين، وهناك الكثير من الفتن التي تُفرّق بين الناس. الطريق الصحيح هو طريق الله ﷻ - معاملة الناس بالرفق والمحبة. وما سينجينا هو الحب الذي نكنّه لنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم. إن الرحمة والتعاون وفعل الخير هي الصفات التي يعزّزها الإسلام ويحبها نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم. هذا هو جوهر الإسلام والطريقة. وبما أن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم هو أحب العباد عند الله عز وجل، فإن قبول الدعاء يظل غير مؤكد ما لم تصلوا عليه في بدايته ونهايته؛ أما عند الصلاة عليه، فإن الله عز وجل يتقبل ذلك الدعاء بلا شك.

.

الله ﷻ يزيد حبنا. نسأل الله أن يوفق الناس دائماً لمساعدة بعضهم البعض. فمن خلال هذا الحب، قد ننال البشرى التي وعدنا بها نبينا الكريم ﷺ، إن شاء الله. فقد ورد في الحديث الشريف عن نبينا الكريم ﷺ يروي أنه حين كان أحد الصحابة في سكرات الموت، زاره النبي ﷺ فوجده يبكي؛ وعندما سأله النبي "ما يبكيك؟" أجاب "أبكي لأنني أوشك على الموت ولن أتمكن بعد الآن من أن أكون معك". فقال نبينا الكريم ﷺ "اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ". إن هذا الحديث الشريف يحمل بشرى رائعة لنا جميعاً. لذلك فإن إظهار الاحترام والتعظيم والمحبة لنبينا ﷺ، وتقديره وإجلاله، يُعد أعظم مكسب وفائدة لنا. فبفضل هذا الحب، لن يواجه المرء عناء الانتظار في مكان الحشر يوم القيامة، ولن يقاسي -حفظنا الله ﷻ- عذاب جهنم؛ بل سيدخل الجنة مباشرة بفضل محبته لنبينا الكريم ﷺ، إن شاء الله. الله ﷻ يرزقنا ذلك جميعاً، إن شاء الله. ومن الله التوفيق. الفاتحة.

مولانا الشيخ محمد عادل الحقاني
26 أيلول 2026/ 15 ربيع الآخر 1448
مسجد طيبة – برلين، ألمانيا